مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين.

وبعد:

فهذه هى الطبعة الثانية لكتاب الوحدانية.

ولقد تأخرت هذه الطبعة برغم كثرة الطلب عليها.

❖ ❖ ❖

إن الكتاب يبحث فى العقيدة، والعقيدة، هى كل شىء فى حياة الإنسان، ومن هنا يكون الحذر عند الكلام فيها.

ولا أريد أن أكرر ما قلته فى مقدمة الطبعة الأولى

ولكنى أقول:

أن طريق القرآن ـ لا غيره من الطرق ـ هو الطريق إلى هداية المهتدين.

أخبرنا بذلك القرآن الكريم، وشهد بذلك من يدخلون الإسلام من كبار المفكرين فى العالم، حين يكتبون عن سبب إسلامهم.

فكل واحد منهم وجد فى القرآن الكريم ـ لا فى غيره ـ النور الذى أضاء له الطريق إلى الهدى.

وحتى الذين لم يدخلوا الإسلام، وكتبوا بعقول مستقلة، بعيدة عن التأثر بالمواريث الفاسدة، كانت كتابتهم ناطقة بما جاء فى القرآن الكريم من العقيدة الصحيحة.

عقيدة التوحيد وهى الفطرة التى فطر الله الناس عليها وأضرب لذلك مثلاً بكتابين:

أحدهما: كتاب: "الله يتجلى فى عصر العلم".

لمجموعة من العلماء المتخصصين فى فروع العلم المختلفة.

obeikandl.com

حيث يقرر هؤلاء العلماء أن دراستهم دلتهم على أن العالم كله يشهد لله بالوحدانية.

الثانى: كتاب "أسطورة تجسد الله فى السيد المسيح".

وهو لمجموعة من علماء اللاهوت النصارى.

وهو ينتهى إلى أن المسيح ليس إلها، وليس ابن الإله. وإنما هو بشر رسول، وأن هذه الصفات التى ألصقت به، وخرجت به من البشرية إلى الإلهية، ليست إلا مواريث من بيئة فاسدة، درجت على تأليه بعض بنى الإنسان. ولعل القارئ يدرك لماذا كان الكتاب يبدأ بالأديان ثم الفرق ثم العقيدة، حيث سنجد بعض العقائد المتورثة فى أديان الأمم السابقة كتأليه الإنسان تنتقل فى المسيحية إلى تأليه المسيح وفى الإسلام إلى تأليه على رضى الله عنه وهذا يظهر من قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ سورة التوبة الآية/ ٣٠.

❖ ❖ ❖

وكل من أسلم ـ وبخاصة العلماء ـ أعلن ما كان سبب إسلامه، مما دل على أن القرآن يخاطب كل العقول من العرب ومن غير العرب، وإن من نواحى إعجازه إعجاز الهداية.

أقدم هذا الكتاب وأنا أشعر بالتقصير ولكنه جهد المقل.

وأدعو الله تعالى أن يجعل عملى خالصًا لوجهه، وأن يسامحنى فيما قصرت فيه، أنه سميع مجيب.

بركات عبد الفتاح دويدار

القاهرة فى ٢٨ شوال سنة ١٤٢٥هـ

١١ ديسمبر سنة ٢٠٠٤م

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وبعد:

فإن الكتابة فى علم الكلام من الأمور الصعبة. وليست الصعوبة راجعة إلى أسلوب المراجع التى تميل إلى التعقيد.. أقول ليست الصعوبة راجعة إلى هذا فإن دراستنا ـ والحمد لله ـ قد يسرت علينا فهمه. ولكن الصعوبة فى الكتابة فى علم الكلام ترجع إلى أمور:

أولاً: مبدأ البحث فى علم الكلام والتعمق فى مسائلة، وبخاصة تلك التى تتصل بذات الله سبحانه، وهل هذا مما يجوز شرعًا أولاً؟

ولقد وقفت أمام هذه المسألة طويلاً.

إن الأمر يتعلق بالعقيدة، ولا شىء أعز على الإنسان من عقيدته إنها الأمل الوحيد لكل عاقل. وأنا من الأشخاص الذين لا يستفزهم النقاش. فلن أقول عن شىء إنه حلال أو حرام انتصارًا لرأى أو عصبية لمنفعة دنيوية، لأننى أعلم أن هناك ما هو أعظم من الانتصار فى المناقشة وهو نجاة الإنسان أمام ربه.

أقول وقفت طويلاً أمام هذا، وملأت مكتبتى بغير علم الكلام، وكنت فى أثناء ذلك كله كثير الاختلاط بالأوساط الفكرية. وأدركت أن هذه المسائل تبحث وتدرس وأن مسائل العقيدة يتناولها الباحثون سواء كنا أم لم نكن.

وأما مسألة الصفات التى كنا نتحرج من البحث فيها، وقد نلوم المتكلمين على تناولها.

أما هذه المسألة فإننى وجدتها تبحث عند المسيحيين بحثًا مستفيضًا، كعملية تبرير لقولهم بالتثليث والتوحيد معًا، وأنه لا يمكن لباحث متخصص مسلم محافظ على دينه أن يرد على هذا إلا إذا كان مدركًا لما قاله علماؤنا من قبل.

لهذا وجدت أن الانسحاب من الميدان بالنسبة لعلم الكلام غير جائز، لأننا عندما نكتب سيسمع لنا رأى، أما إذا لم نكتب فإن غيرنا هو الذى سيتولى الكتابة وحده. وكثيرًا ما يكون هذا الغير بعيدًا كل البعد عن فهم ما يكتب وقد يأتى بالمبتدأ ويترك الخبر. ومع هذا يظن ـ كما سمعت منهم ـ أنه القاضى فيما يتعلق بالعقيدة. وبذلك انشرح صدرى لكتابة فى علم الكلام والفرق.

ثانيًا: من أسباب الصعوبة فى الكتابة فى علم الكلام تلك الحواجز بيننا وبين معرفة الرأى الحقيقى لفرقة ما، بسبب ما كتب عن هذه الفرق.

لقد عبر الإمام الأشعرى عن ذلك فى مقدمة كتابه "مقالات الإسلاميين" عندما قال:

"ورأيت الناس فى حكاية ما يحكون من ذكر المقالات ويصنفون فى النحل والديانات، من بين مقصر فيما يحكيه وغالط فيما يذكره من قول مخالفيه، ومن بين متعمد للكذب فى الحكاية، إرادة التشنيع على من يخالفه، ومن بين تارك للتقصى فى روايته لما يرويه من اختلاف المختلفين، ومن بين من يضيف إلى قول مخالفيه ما يظن أن الحجة تلزمهم به.

فإذا كان هذا هو شأن المصادر التى نأخذ عنها فإن السبيل إلى الحق يصبح صعبًا.. ومن أجل التغلب على هذا حاولت ـ ما أمكن ـ عدم الاعتماد على الكتب التى ألفت فى تاريخ الفرق إذا كان هناك سبيل إلى الرجوع إلى كتب الفرق نفسها، وبخاصة فيما يتصل بالمعتزلة، حيث كنا نعرف رأيهم من كتب خصومهم.

والآن أصبحت كتبهم أمامنا، فما الداعى لأن نأخذ رأيهم من كتب غيرهم؟

ثالثًا: من أسباب الصعوبة فى الكتابة فى علم الكلام ضياع كثير من المراجع التى توضح مذهب هذه الفرقة أو تلك مأخوذة من أصحابها، وأضرب لذلك مثلاً بالجعد بن درهم والجهم بن صفوان.

وهذا يجعل الباحث ـ فى حكمه على أمثال هؤلاء ـ معتمدًا على حكم غيره فيهم، وهذا مما يقلق ضمير الباحث ويجعله غير مطمئن لحكمه.

من أجل هذا حاولت عدم مدح شخص أو ذمة إلا بمقدار ما يتعلق بآرائه من حيث الصواب أو الخطأ.

وذلك أن الإنسان لكى يحكم بخطأ شخص يمر بمرحلتين:

المرحلة الأولى هذا الرأى خطأ.

المرحلة الثانية هذا الشخص قد قال بهذا الرأى الخطأ.

والحكم فى المرحلة الأولى سهل، فمن السهل أن نحكم بأن التناسخ، أو وحدة الوجود، أو تأليه على، كلها خطأ وخروج عن الدين. ولكن الصعوبة فى المرحلة الثانية وهى أن نقول: هذا الشخص قد قال بالتناسخ، أو وحدة الوجود، أو تأليه على، لأن هذا الحكم يتوقف على تلك المصادر المقطوع بنسبتها إلى صاحبها، وأن عباراته تفيد بالفعل هذا الرأى.

ولذلك ـ وتجنبا للأخطاء فى هذه الناحية ـ ركزت على أن هذه الآراء كانت موجودة كعقيدة دخيلة على الإسلام فى البيئة الإسلامية، وهذا هو الذى يهمنا بالدرجة الأولى.

أما الذى فيه شك ولا يهمنا إلا بالدرجة الثانية فهو أن هذه العقيدة كان يقول بها فلان بعينه.

ولقد اضطرنا الاحتياط أن نترك بعض الأشخاص دون أن نحكم عليهم من ناحية العقيدة، حيث إن الكتابة ليست خاصة بهم، ولكن حكمنا على الفكرة فى ذاتها كما هو عند ابن عربى[1].

❖ ❖ ❖

لقد أصبح الواجب أن نحاول ما أمكن عدم الاعتماد الكلى على الكتب التى كتبت فى الفرق.

وليس هذا شكا فى هؤلاء المؤلفين أو أنهم تعمدوا الخطأ ولكن ـ وإحسانًا للظن بهم ـ نقول: إنه قد يكون الحماس للدين هو الذى دفعهم إلى هذا الرأى فى خصومهم، عندما ظنوا أن هؤلاء الخصوم قد خرجوا على الدين خروجًا لا شك

(١) لو كان هناك بحث خاص بابن عربى مثلاً فإن التعرض للحكم عليه أو له يصبح لا مفر منه. وفى بحثنا هذا لسنا مكلفين بالحكم على كل الأشخاص بل المطلوب هو هل هذه الآراء وجدت فى البيئة الإسلامية؟

obeikandl.com

فيه، ولنقرأ فى ذلك الفرق بين الفرق للبغدادى ورأيه فى المعتزلة وعندئذ سندرك مدى الفائدة فى عدم اعتماد رأى خصم على خصمه.

❖ ❖ ❖

وكتابى هذا كما ترى يبدأ بالأديان، وهو الباب الأول. ثم الفرق، وهو الباب الثانى، ثم وجود الله سبحانه، وهو الباب الثالث. وينتهى بالوحدانية وهو الباب الرابع. ولعل القارئ يرى أنه كان يجب أن يكون فى موضوع واحد.

ولقد فكرت فى ذلك طويلاً، حيث إن فكرة الكتاب لازمتنى مدة طويلة ـ وقلت أبدًا بالوحدانية ولكننى ووجهت بالرأى المعارض للإسلام إننى أريد أن أشرحه وأبين وجهة نظر القائل به قبل الرد عليه.

ولو أننى فعلت ذلك لأدى بى الأمر إلى الاستطراد الذى يقطع على القارىء أفكاره.

وفكرت فى وضع ذلك فى الهامش حتى يكون صلب الكتاب متصلاً وعندئذ وجدت الهوامش وقد طالت حتى أصبح الكتاب عبارة عن هذه الهوامش.

وأخيرًا راجعت منهج المتكلمين فى كتابتهم ـ والكتاب فى علم الكلام ـ فوجدت أنهم (لم يرضوا أن يكونوا محتاجين فيه ـ فى علم الكلام ـ إلى علم آخر أصلاً، فأخذوا موضوعه على وجه يتناول تلك العقائد والمباحث النظرية التى تتوقف عليها تلك العقائد، سواء كان توقفها عليها باعتبار مواد أدلتها، أو باعتبار صورها، وجعلوا جميع ذلك مقاصد مطلوبة فى علمهم هذا، فجاء علمًا مستغنيًا فى نفسه عما عداه، ليس له مبادىء فى علم آخر)[١].

وقلت يمكن الانتفاع بهذه الفكرة، بأن يجعل شرح ما يخالف الوحدانية ومن جاهدوا فى سبيل الوحدانية مقدمة لها وهذا مضمون الباب الأول والثانى وأما الباب الثالث فلا يمكن الاستغناء عن شىء منه لأنه لا يمكن الكلام فى وحدانية الله بدون الكلام فى وجوده سبحانه حتى ولو قلنا إن وجود الله فطرة فى النفوس.

---

(١) شرح المواقف ص٥٦ ـ ٥٨ط.

وبعد... فهى محاولة أرجو الله تبارك الله وتعالى أن يكون قد وفقنى فيها، وإن كنت قد أخطأت فأرجوه تعالى أن يجعله خطأ المجتهدين الذين إن أخطأوا فلهم أجر وإذا أصابوا فلهم أجران.

القاهرة ١٩٧٧م

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيـــدات

التمهيد الأول

فى الدين والشرع والملة والمذهب

الدين:

الدين بالكسر والسكون فى اللغة يطلق على:

الحال قال ابن مقبل:

يا دار سلمى لا أكلفها إلا المرانة حتى تعرف الدينا

أى الحال التى كنا عليها. والمرانة هضبة.

ودان الرجل إذا عز. ودان الرجل إذا ذل.

ودان إذاعصى. ودان إذا أطاع.. فهو من الأضداد.

ومن معناه: القضاء.

سئل بعض السلف عن على بن أبى طالب فقال:

كان ديان هذه الأمة بعد نبيها. أى كان قاضيها وحاكمها.

كما يأتى بمعنى العادة:

قال المثقب العبدى: ..... أهذا دينه أبدا ودينى

وتقول العرب: مازال هذا دينه: أى عادته.

قال امرؤ القيس:

كدينك من أم الحويرث قبلها .....

أى كعادتك:

كما يأتى بمعنى الحال:

قال النضر بن شميل:

obeikandl.com

سألت أعرابيا على شيء فقال: لو لقيتنى على دين غير هذا لأخبرتك

كما يأتى بمعنى السيرة، والحساب، والقهر، والجزاء.

يقال دانه بما فعل: إذا جازاه. وقد دنته إذا جزيته.

وقال الشاعر:

ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

أى جازيناهم كما جازوا.

وقال آخر:

إن ضحيكا قتيل من سراتكم وإن حطان منا فاعدلوا الدينا

أى الجزاء والمكافأة

ومن ذلك قوله تعالى: "**مالك يوم الدين**".

أى يوم يدان فيه العباد، أى يجازون بأعمالهم.

ويأتى بمعنى السلطان. قال زهير:

لئن حللت بجو فى بنى أسد فى دين عمرو، وحالت بيننا فدك

معناه فى سلطان[١].

وبمعنى الطاعة فى مثل: دان له يدين: إذا كان فى طاعته.

وفى قوله تعالى: "ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك" أى فى طاعته[٢].

ويكون أيضًا بمعنى العبودية والذل: قال قطرى بن الفجاءة لأصحابه عن الدنيا: "وقد رأيتم تنكرها لمن دان لها وآثرها".

أى خضع وذل

وجاء الحديث: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت.

معناه استعبد نفسه وأذلها لله عز وجل، أو حكمها وضبطها.

---

(١) هذا ما جاء فى الأمالى. وأما كتاب الجيم فقد أورد البيت كشاهد على الدين بمعنى الطاعة، ومن الواضح أن المعنيين بينهما قرب

(٢) هذا ما جاء فى الامالى وقد يفسر الدين هنا بمعنى الشريعة، أى ما كان ليأخذ أخاه على مقتضى شريعة ملك مصر..إلخ.

obeikandl.com

قال الأعشى

هو دان الرباب إذ كرهو الديـ ـن دراكـا بغـزوة وصـيال
ثـم دانـت بعد الرباب وكانت كعـذاب عقـوبة الأقـوال

بمعنى أنه أذلهم فذلوا:

وقال القطامى:

رمت المقاتل من فؤادك بعدما كانت نوار تدينك الأديان

معناه تستعبدك بحبها.

ويكون الدين أيضًا: الملة، كقولك: نحن على دين إبراهيم.

وقد يأتى الدين بمعنى القهر، والسيرة، والحكم.

وبملاحظة فاعل دان ومرجع الضمير يتحدد المراد من الدين.

فإذا كان الفاعل هو الأعلى فإن المراد هنا يكون أن الأعلى سيطر وقهر الأدنى والفعل هنا يتعدى بنفسه "دانه" ومرجع الضمير المفعول هو الأدنى.

وإذا كان الفاعل هو الأدنى فإن الفعل هنا يحمل معنى الخضوع والذلة ويتعدى الفعل هنا باللام "دان له" ومرجع الضمير المجرور هو الأعلى.

وفى "دان به" نجد أن الضمير المجرور يرجع إلى ما يتخذ دينا والفاعل هو الأدنى فالدين هنا هو المسيطر.

ويكون معنى "دان به" اتخذه ديناً.

ونلاحظ أنه فى المعنى الثانى والثالث الفاعل هو الأدنى ونجد هنا معنى الخضوع وفى المعنى الأول الفاعل هو الأعلى فنجد معنى الإخضاع.

هذا بالنسبة للغة.

فإذا ما أردنا تحديد معنى الدين اصطلاحًا فإننا نجد اختلافًا واسعًا، والباحثون فى الأديان يرون أن السبب فى الاختلاف فى تعريف الدين "راجع إلى تعقد الديانات السائدة والتى سارت فى أجزاء مختلفة فى العالم وتشعبها، وما تثير من مشاعر عميقة مختلفة ومتباينة.

وكثير من تلك التعاريف يتضمن أحكامًا قيمية[١]، لأن أصحابها ـ مثلاً ـ يعتقدون فى صحة دين معين دون سواه، وبذلك يبعدون عن روح البحث الموضوعى للدين كنظام أو ظاهرة سائدة فى المجتمع" [٢]

إذًا فالعسر فى تحديد معنى للدين تحديدًا دقيقًا راجع إلى تباين "تأويله لدى كل من البدائيين وأصحاب الديانات السماوية، ولاختلاف طبيعته من شخص إلى آخر، ولا تصاله بأعمق العواطف والمعتقدات التى تدفع الإنسان نحو الكمال.

ويشتمل الدين على الدوافع التى تحكم سلوك الإنسان بدائيًا كان أو متحضرًا ويختلف تصور ماهية الدين لدى الأفراد، بل لدى الفرد الواحد فى مراحل حياته المختلفة"[٣]

ونحن عندما نذكر العسر فى تعريف الدين إنما نريد أن نعرف كيف نعذر من أتى بتعريف نراه ـ من وجهة نظرنا ـ خطأ.

وهاك بعض التعاريف الاصطلاحية التى ذكرت للدين:

١ ـ مجموعة معتقدات وعبادات مقدسة تؤمن بها جماعة معينة، يسد حاجة الفرد والمجتمع على السواء ـ أساسه الوجدان وللعقل مجال فيه[٤]

٢ ـ وضع إلهى يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول صلى الله عليه وسلم[٥]

٣ ـ وضع إلهى سائق لذوى العقول باختيارهم إياه إلى الصلاح فى الحال والفلاح فى المآل. [٦]

٤ ـ إدراك الواجبات على أنها أوامر إلهية[٧].

---

(١) تختلف باختلاف من يصدر الحكم

(٢) معجم العلوم الاجتماعية.

(٣) الموسوعة العربية الميسرة.

(٤) المعجم الفلسفى.

(٥) التعريفات للسيد.

(٦) كشاف اصطلاحات الفنون

(٧) "كوليه" المدخل إلى الفلسفة ص ١٢٧ وهذا التعريف لكانت.

obeikandi.com

٥ ـ الغرب المسيحى يفهم الدين على أنه تجربة فردية خاصة لا تذهب أبعد من العلاقة الشخصية بالله، وهى علاقة تعبر عن نفسها فقط، فى عقائد وشعائر يؤديها الفرد.

وعليه فلا يمكن تصنيف الإسلام كدين بهذا المعنى. فالإسلام أكثر من دين لأنه يحتوى الحياة كلها[١].

ويقينى أن الاختلاف فى تعريف الدين إنما يتضح عندما نريد التعبير بألفاظ عما بداخلنا. أما الإحساس بالدين والفرق بينه وما ليس بدين فلا اختلاف فيه.

فعندما تحصل حادثة معينة ونتصرف حيالها تصرفًا معينًا فإننا من أعماقنا ندرك أن هذا التصرف دينى أو غير دينى، كل بحسب اعتقاده طبعًا فعندما يتصرف الإنسان حيال هذه الحادثة تصرفًا معينًا وهو يخطر بباله فكرة الثواب والعقاب كنتيجة لتصرفه فإن الإنسان يتعامل تعاملاً دينيًا، وهو فى هذه الحالة يفرق ـ حسب عقيدته ـ بين أسباب الثواب وأسباب العقاب.

ويضاف الدين إلى الله سبحانه "دين الله".

وإلى النبى صلى الله عليه وسلم مثل "دين محمد صلى الله عليه وسلم"

وإلى الأمة مثل "دين المسلمين".

فإذا أضيف إلى الله سبحانه بأن قيل: "دين الله فإن ذلك لصدوره عنه وإذا أضيف إلى النبى صلى الله عليه وسلم بأن قيل: "دين محمد" فإن ذلك لظهوره منه.

وإذا أضيف إلى الأمة، بأن قيل: "دين المسلمين" فإن ذلك لتدنيهم به وانقيادهم له[٢]،

الشرع بفتح الشين لغة مشرعة الماء، وهو مورد الشاربة، والشريعة كذلك واصطلاحًا: ما شرع الله تعالى لعباده من الأحكام التى جاء بها نبى من الأنبياء صلى

---

(١) "الإسلام بين الشرق والغرب ص٢٧.

(٢) يرجع فى هذا إلى الأمالى، وكتاب الجيم، والتكمله والذيل والصلة وكشاف اصطلاحات الفنون.

الله تعالى عليهم وعلى نبينا وسلم. سواء كانت متعلقة بكيفية عمل وتسمى فرعية وعملية، ودون لها علم الفقه أو بكيفية الاعتماد وتسمى أصلية واعتقادية، ودون لها علم الكلام[١].

وأما الفرق بين الدين، والشرع، والملة، والمذهب، فإنه:

قد يسمى الشرع بالدين والملة.

فإن الشريعة من حيث إنها تطاع دين.

ومن حيث إنها تجمع ملة. وقد يقال: إنها من حيث تملى وتكتب ملة.

ومن حيث إنها مشروعة شرع.

ومن حيث إنها يرجع إليها مذهب.

وقد يفرق بين الدين والملة والمذهب.

أن الدين منسوب إلى الله.

والملة منسوبة إلى الرسول.

والمذهب منسوب إلى المجتهد[٢].

(١) هذا ما جاء فى كشاف اصطلاحات الفنون، ولكن خصوم علم الكلام لا يسلمون له بهذا الشرف.

(٢) التعريفات للسيد.

obeikandl.com

التمهيد الثانى

السحر والفرق بينه وبين الدين والعلم

عند الأغلبية الساحقة بين الإفريقيين لا توجد تفرقة بين السحر والدين، بل إن التعبير يستمر حتى بين بعض المتعلمين[١].

ولكن هذا لا يمنع من الفرق بين هذه الأمور.

السحر: فن يزعم إحداث آثار مضادة لقوانين الطبيعة، بواسطة طقوس وأعمال خاصة كالإشارات والرقى[٢].

والفرق بين السحر والدين: أن الدين يقوم على استرضاء القوى التى يعتقد المتدين أنها تؤثر فى العالم.

وهذا الاسترضاء إنما يكون بأنواع العبادة والدعاء.

والمتدين يعتقد أن القوى التى تؤثر فى العالم كما لم تكن مختارة فهو "يعامل هذه الأرواح بنفس الطريقة التى يعامل بها القوى غير الحية ، بمعنى أنه يجبرها، أو يقهرها، بدلا من أن يعمل على إرضائها، أو استمالتها كما يفعل الدين.

وعلى ذلك فالسحر يفترض أن كل الكائنات الشخصية سواء أكانت بشرية أم إلهية تخضع فى آخر الأمر لتلك القوى اللاشخصية التى تسيطر على جميع الموجودات، والتى يمكن مع ذلك لأى شخص أن يستميلها إلى صفه إذا عرف كيف يخضعها بالطقوس والتعاويذ الملائمة[٣].

ويزعم السحرة أنهم يؤثرون فى الكائنات، وفى الطبيعة تأثيرًا يجعلهم قادرين على تغيير نواميسها طبقًا لرغباتهم، ويزعمون كذلك أن الأسرار التى تعطيهم

---

(١) الرب والله وجوجو ص ٦٦.

(٢) المعجم الفلسفى.

(٣) الغصن الذهبى ص ٢٢١.

obeikandi.com

القدرة على خرق القوانين والعادات الطبيعية إنما يستمدونها من قوة ذاتية تنمو بقدر ما يكثرون من القيام بطقوس خاصة[١].

أما العلم ـ أى الطبيعى ـ فإنه يعتمد على علاقات ثابتة بين الظواهر الطبيعية[٢].

"وللعلم تعاريف كثيرة يستطيع المرء أن يملأ بها عدة صفحات، ومع هذا فالرجل العادى عنده فكرته الواضحة عن العلم، فإذا أنت ذكرت له العلم ذكر بذكره هؤلاء الرجال الذين يعملون فى المعامل والمختبرات، والذين كشفوا الكشوف التى جاءت لنا بالصناعة الحديثة وبالطب الحديث"[٣].

والسحر يكاد يكون القاسم المشترك بين الأمم كلها، فما من أمة إلا ونجد عندها السحر قديمًا وحديثًا، وإنما يختلف قوة وضعفا من هنا إلى هناك.

وكلما ابتعدت الأمة عن الدين الصحيح والأسلوب العلمى نجدها تقع تحت تأثير الاعتقاد فى السحر.

ولما كان السحر ـ كما تقدم ـ يقوم على اعتقاد معين فى التأثير والمؤثر تتبعه محاولة السيطرة على تلك المؤثرات، لما كان ذلك كذلك فإننا هنا نذكر بعض تلك الاعتقادات ليتبين تأثير تلك الاعتقادات على مسار الفكر الدينى الصحيح.

فقد نجد عند البعض تفسيرًا لأسباب الموت، وأن كل موت لا يكون فى ساحة القتال إنما هو ناتج عن أسباب خفية أو سحرية.

فالأرواح الخبيثة هى التى تسبب الحادث الذى أدى إلى الموت، فهى التى أسقطت الحجر على الرأس مثلاً، أو هى التى أعمت الشخص حتى تردى فى البئر "وإذا مات الشخص بالمرض اعتقدوا أنه راح ضحية السحر وتجرع السم"[٤].

---

(١) معجم العلوم الاجتماعية.

(٢) المعجم الفلسفى.

(٣) مواقف حاسمة فى تاريخ العلم ص٤٢.

(٤) العقلية البدائية ص ص٢٨.

obeikandl.com

"ويبدو أن هذه المعتقدات توجد لدى جميع الجماعات المتأخرة التى تسكن الأمريكتين" وفى إفريقيا الجنوبية حيث" يظن الأهالى أن الساحر فى قدرته أن يسلم أى صياد إلى جاموس أو فيل أو حيوان آخر ليفتك به، كما يعتقدون أن الساحر يستطيع أن يعهد إلى هذا الحيوان بإهلاك من يشاء.

لذلك إذا قتل شخص فى أثناء الصيد قال أصدقاؤه: هذا من عمل الأعداء لقد اسلموه إلى الحيوان المفترس"[١].

وأهل الكنغو يرجعون المرض"إلى فعل السحرة دون سواه، حتى لو كان الموت ناشئا عن الحرب أو الغرق أو السقوط من فوق شجرة عالية، أو انقضاض صاعقة، أو اعتداء حيوان ضار، فإنهم يعزونه إلى تأثير السحر.

فعندهم أن الميت لا يموت إلا إذا وقع ضحية لسحر ساحر"[٢].

"وفى[٣] مصر القديمة كان السحرة يدعون لأنفسهم القدرة على إخضاع أعظم الآلهة لرغباتهم، بل إنهم كانوا يهددون الآلهة فعلاً بالدمار إذا لم يستجيبوا لهم. كما كانوا يهددون فى كثير من الأحيان ببعثرة عظام "أوزيريس" والكشف عن قضيته المقدسة إذا أظهر الإله شيئًا من العناد أو التمرد.

ولكنهم لم ينفذوا ذلك التهديد أبدًا.

وفى الهند نجد أن الثالوث الهندوكى الأعظم الذى يتألف من "براهما"و"فيشنو"و"سيفا" لا يزال خاضعًا لقوة السحرة الذين يتمتعون بفضل تعاويذهم بنوع من الشعور بالاستعلاء على أقوى الأرباب، مما يضطر هذه الأرباب ذاتها للخضوع لهم، والاستجابة لكل ما تأمرها به سادتها السحرة وتحقيق مطالبهم فى الأرض أو فى السموات.

---

(١) نفس المصدر ص ٢٩.

(٢) نفس المصدر ص ٢٩.

(٣) الغصن الذهبى ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

وثمة قول شائع فى الهند من أن الكون كله خاضع للآلهة وأن الآلهة خاضعة للتعاويذ وأن التعاويذ خاضعة للبراهمة. فالبراهمة إذا هم آلهتنا".

وقد يحدث نقص فى الطعام"فى قرية من قرى الاسكيمو، وعندما يحدث ذلك فإن أسر القرية تتجمع وتحاول تحت توجيه زعيم دينى يطلق عليه الشامان[١] اكتشـاف ـ بالوسائل السحرية ـ سبب نقص الطعام[٢].

وبرغم تغير التفكير لدى الإنسان والاتجاه إلى التفكير الواقعى المبنى على الحقائق العلمية برغم هذا نجد أن الإيمان بالسحر مازال موجودًا فى كثير من بقاع العالم، ولكنه فى بعض الأماكن أوضح منه فى غيرها.

فهو فى إفريقيا حيث نجد السواد الأعظم يؤمن به، لا فرق بين متعلم وغير متعلم "فالسحر أبعد ما يكون عن الانقراض، بل إنه يبعث بحمية[٣]".

ذلك أنه عند محاربة الاستعمار يكون الاتجاه إلى التمسك بالفكر الوطنى، ولعل هذا ينطبق على إفريقيا، فقد يوجد هناك من يرى أن السحر من الفكر الإفريقى الذى يجب عدم التخلى عنه وتكون "إحدى النتائج الجانبية للاتجاه للإفريقية هو زيادة الاهتمام فى كل الممارسة الإفريقية التقليدية بما فى ذلك السحر[٤].

وهذه حادثة تبين لنا مدى بقاء سيطرة العقيدة فى السحر على العقل الإفريقي. فقد نفى مكتب المستعمرات البريطانى فى وقت من الأوقات حاكم يوغندا.

واحتجاجا على ذلك ترك أصدقاؤه لحاهم تنمو، وحينما سمح له أخيرًا.

بالعودة أزيلت اللحى فى حفل عام، وكانت النية متجهة لعمل مخدة منها للعرش الملكى، وبعد تفكير مترورئى أن الأعداء السياسيين ربما يستدلون على المخدة ويستعملون الشعيرات فى تعاويذ خطيرة ضد أصحابها.

---

(١) الشامان كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرض ولكشف المخبأ وللسيطرة على الأحداث "مقدمة فى الأنتربولوجيا" ص ٥٩٨.هامش

(٢) نفس المصدر ص ٥٨٥.

(٣) الرب والله وجوجو ص ٦٨.

(٤) نفس المصدر ص ٦٨.

ومنعا من المخاطرة قرروا إبادة كل ما حلق"[١].

ولازالت إلى الآن تثار بين وقت وآخر قضايا عن مدى اتصال الإنسان بالجن ومدى استطاعته تسخيرها.

وهذه القضايا تثار فى كل بقاع العالم ـ لا فرق بين أمة وأمة ـ وإن كان عدد المصدقين يختلف من مكان لآخر.

والسحر أنواع منها:

١ـ سحر أسود: تنسب فيه قوة الساحر إلى الاعتماد على تسخير العفاريت، وإلى هذا النوع من السحر تتجه انتقادات أبى بكر محمد الباقلانى فى كون السحر"إنما هو مجرد إيهام وحيل تخيل للناس الأمر على غير ما هو به.(كتاب البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر بيروت ١٩٥٨)"[٢].

٢ـ سحر أبيض: هو أن يستغل الساحر جهل عموم الناس، فيستخدم خواص الطبيعة فى إحداث آثار غريبة[٣].

٣ـ السحر المعدى: ضرب من السحر يقوم على الاعتقاد بأن الخطيئة تنتقل بالعدوى، أى الاعتقاد بانتقال الصفات والخصائص من شيء أو شخص إلى شيء آخر أو شخص آخر بالملامسة والاتصال الجسمى[٤].

---

(١) نفس المصدر ص ٦٩.
(٢) معجم العلوم الاجتماعية.
(٣) معجم العلوم الاجتماعية.
(٤) قصة الإنسان قاموس المصطلحات الموجود آخر الكتاب.

obeikandl.com

التمهيد الثالث

الدين والتطور (والفرق بين النسخ والتطور)

يطلق التطور على التغير التدريجى الذى يحدث فى تركيب المجتمع، أو النظم، أو القيم السائدة فيه"[١].

والمعجم الفلسفى يقول عن التطور إنه "نمو بطئ متدرج يؤدى إلى تحولات منظمة ومتلاحقة تمر بمراحل مختلفة، يؤذن سابقها بلاحقها، كتطور الأفكار والأخلاق والعادات، ولا يكون التطور مسبوقًا بتخطيط، ولا مستهدفًا لغاية، على عكس التقدم وهو فى الجملة انتقال من المختلف إلى المؤتلف، ومن غير المتجانس إلى المتجانس ومن اللامحدود إلى المحدود أو بالعكس.

ولا يتضمن التطور فى نفسه فكرة التقدم أو التقهقر. وإنما يعبر عن التحولات التى يخضع لها الكائن العضوى، أو المجتمع سواء أكانت ملائمة أو غير ملائمة".

والحكم على التطور بأنه لا يكون مسبوقًا بتخطيط يوضح لنا أن من يقول بتطور الأديان لا يعترف بقدرة عليا تضع حكمًا مكان حكم آخر كما هو الحال فى النسخ.

الفرق بين النسخ والتطور:

النسخ هو: الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بخطاب آخر على وجه لولاه لاستمر الحكم المنسوخ[٢].

إننا عندما نقول بالنسخ - وهذه هى عقيدتنا كمسلمين - نقصد أن الله سبحانه عندما يرسل رسولاً بعد رسول تكون رسالة اللاحق ناسخة لرسالة السابق مادام قد جاء عند اللاحق ما يدل على هذا.

ونحن هنا ننطلق من الإيمان بالله مرسل الرسل، والموحى إليهم بما يريد، وكل ما يكون من الله سبحانه إنما هو بإرادته وبحكمته. كما نؤمن بأن التوحيد هو أصل الديانات السماوية كلها، وأن الفرق بين دين ودين ليس فى الأصول.

---

(١) المعجم الوسيط.
(٢) الإرشاد لإمام الحرمين ص٣٣٩.

obeikandl.com

أما الذين يقولون بالتطور فى الأديان ـ منكرين للوحى ـ فإنهم يرون أنه بحركة التطور يمر الدين بمراحل مختلفة، وهو فى كل مراحل تطوره ليس متأثرًا بقوة خارجية.

وإذا أخذنا "أوجست كونت" كمثل على هذا، فإننا نراه يقول بأطوار ثلاثة "هى: الفتيشية، وتعدد الآلهة، والتوحيد[١].

وهؤلاء الذين يقولون بالتطور على هذا النحو الذى قال به "أوجست كونت" ـ برغم أن ما قالوه ليس إلا تخمينًا فاسدًا ـ لا يكتفون بهذا بل يذهبون إلى تحديد الزمن الذى ظهر فيه التوحيد، ونقرأ لهم قولهم:

"أما مفهوم الإله الوحيد فإنه أكثر ندرة، ويبدو أنه مفتقد بين جميع الشعوب الأمية. وكما نعلم فإنه يبدو فى تاريخ العالم القديم أن هذا المفهوم قد ظهر لأول مرة فى مصر حوالى عام ١٤٠٠ق.م، ثم انتشر بعد عدة قرون فى آسيا الصغرى وظهر هذا المفهوم هنا حوالى عام ٨٠٠ق.م فى اليهودية، والزرادشتيه، ثم بعد ذلك فى المسيحية والإسلام[٢].

هذا هو رأيهم:

وهو رأى باطل ـ فمع أنهم يريدون أن يخضعوا كل شيء للتطور من داخله دون النظر إلى قوة خارجية مؤثرة سواء فى ذلك العادات والأخلاق والدين والكائنات الحية ـ مع أنهم هكذا يريدون أن يحكموا على فترة من تاريخ الإنسان لم يعرفوا عنها إلا النادر، وهو رأى باطل.

وقلنا: هذا رأى باطل لأنه ما من مرحلة من مراحل حياة البشرية عرفناها حتى الآن إلا ونجد التوحيد موجودًا هنا أوهناك.

والباحثون فى الدين بهذا الأسلوب المبنى على التطور والنمو المطرد ليس عندهم دليل يقينى على ما يقولون، وهذا ما لاحظه المحايدون من الباحثين، وهو أن

(١) أوجيست كونت تأليف ليفى بريل ترجمة د. محمود قاسم ص٢٩.
(٢) نفس المصدر ص ٢٩.

"النظريات المتصلة بتاريخ الأديان تقوم على مجرد افتراضات أكثر من قيامها على علاقات واضحة بين السبب والمسبب.

فيعتقد بعضهم أن أقدم صورة للدين هى "الفتيشية" (وهى: عبادة المسحورات) ويعتقد آخرون أنها كانت الاعتقاد فى الأشباح.

وتقول فئة ثالثة: بأنها تعدد الآلهة.

بينما يقول آخرون: إن الدين الأول كان يقوم على وحدة الوجود، أو الربوبية المشوبة (الإيمان بإله واحد، مع عدم انتفاء الإيمان بغيره) أو التوحيد.

ويذهب غيرهم - تبعًا للمبدأ القائل بالتطور من البسيط إلى المركب - إلى أن الدين بدأ بعبادة الإنسان للموجودات الطبيعية أولاً، ثم قرن بينها وبين أرواحها... وأخذ يخلع على الأرواح سلطانا يمكنها من تدبير الكون، يسبغ عليها صفات تشبه صفات الإنسان... ويعتبر التوحيد أسمى المراحل عند القائلين بالتحليل التاريخى"[١].

وهكذا نجدهم لا يتفقون على رأى حيث"لا تعتمد هذه الآراء التطورية فى الدين على بحث علمى وإنما هى مجرد فروض يمكن أن يبرهن الإنسان على عكس ما تذهب إليه[٢].

ولا يحتاج الباحث إلى كبير عناء ليدرك أن ما قاله الباحثون الوضعيون فى نشأة الأديان ما هو إلا مجرد تخمين لا أساس له من الصحة.

فهم - مثلاً - عندما يتكلمون عن فكرة النجاسة لا يرضون أن يعترفوا بأنها أحكام من الله سبحانه، وعندئذ تراهم يلجئون إلى الافتراضات التى لا تجد الدليل، وينصون على أن رأيهم الذى يقولونه ليس إلا ظنًا.

وهاك رأيهم فى اعتقاد الناس بنجاسة بعض الأشياء: يقولون: "أكبر الظن أنها نشأت فى أذهان الناس من قديم الزمان بسبب إلمام الأمراض المعدية بهم إلمامًا لم يكونوا يعرفون له سببًا..

---

(١) عن الموسوعة العربية الميسرة مادة "دين".

(٢) نفس المرجع نفس المادة.

ويحتمل كذلك أن يكون الإنسان قد ابتدأ فجر حياته العقلية ولديه شعور بالشؤم المحيط بالأماكن والأشياء"[١].

هنا يجد التعبير"أكبر الظن""ويحتمل".

وفى مكان آخر يقول عن اختلاف الكتاب فى أصل التدين يقول:

"وقد ظل الكتاب المختلفون يؤكدون هذا العامل أو ذاك، ويبررون أهميته"[٢].

وهذا ما يفيد عدم الاستقرار على رأى معين.

ونقول: هل هذه التخمينات تصلح سببًا ليترك الإنسان ما جاء به دينه ويأخذ بها، وهو يرى أن أصحابها لا يؤمنون بها، فهم أول من يدرك أنهم ليس لديهم دليل يقينى على صحة ما يقولون. ولكنه التيه الذى يعيشون فيه بسبب انطلاقهم من عدم الإيمان بالله.

وننتهى إلى أننا ـ كمسلمين ـ لا نقر القول بالتطور لا فى أصول الدين ولا فى القانون، ولا فى الأخلاق.

فالتوحيد هو العقيدة التى أرسل الله بها رسله من أول الخليقة حتى الآن.

والزانى يرجم إن كان محصنًا، ويجلد إن كان غير محصن، وشارب الخمر يجلد، مهما قيل عن تغير الظروف، لا فرق فى ذلك بين الزانى وشارب الخمر فى عصور الإسلام الأولى والزانى وشارب الخمر الآن.

وكشف المرأة لعورتها لا يجوز، دون نظر إلى العصر الذى يعيش فيه.

إنها أحكام الله تعالى ليس لنا أن نغير فيها، ولا أن نبدل.

والذين يقولون بأن ذلك لا يساير العصر عليهم أن يعلموا أن الإسلام هو الذى يحكم على العصر، وليس العصر هو الذى يحكم على الإسلام.

بعد هذه التمهيدات ننتقل إلى دراسة الدين كواقع، ونبدأ به عند العرب.

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية ص ١١٨.

(٢) نفس المصدر ص١٢٤.